خصائص العربية فى
نظر ابن درستويه

للدكتور محمد بدوى المختون

تقديم :

كان ابن درستويه عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان الفارسى اللغوى النحوى المكنى بأبى محمد والمتوفى سنة ٣٤٧ هـ - ممن ذهب إلى تهذيب اللغة عن طريق آرائه فى خصائصها ومذهبه فى نشأتها .

ولا بد لى من تعرّف على اللغة وتطورها وتهذيبها فى مدخل يجلّى ذلك .

(١) مدخل البحث

يشمل هذا المدخل ثلاث نقاط :

أ - على رأسها : اللغة العربية وعصورها :

اللغة العربية قديمة فى التاريخ ، أول من تعلمها إسماعيل من جرهم الذين نزل فيهم وصاهرهم ، فلامس العرب وبلغتهم نطق وصار منهم ، وذهب إلى ذلك ابن عباس وأراد بها عربية قريش التى نزل بها القرآن .

وتكاد الروايات تجمع على ذلك ، كما تجمع على الفصل بين العربية التى نزل بها القرآن وبين عربية حمير وقحطان ؛ كما جاء فى أدب الكتاب للصولى : « ... أن أول من تكلم بالعربية إسماعيل عليه السلام فإنما يعنى اللسان الفصيح الذى نزل به القرآن . وعربية حمير وبقايا جرهم غير هذه ليست بفصيحة [١] » كما روى : ليست عربيتنا بعربيتهم ؛ من دخل ظفار حمّر . أى ليتكلم بالحميرية .

وقد اختلف فى أصلها وواضعها على أقوال أوجزها فيما يلى :

١ - أن الواضع هو الله سبحانه وتعالى أخذا من الآية « وعلّم آدمَ الأسماء كلها » البقرة آية ٣١ وهو قول ابن عباس وارتضاه ابن فارس فى (الصاحبى) فى باب القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح .

ومذهب أبى على الفارسى الذى يعتبر معاصرا لابن درستويه ، وذلك رأى ابن درستويه أيضا ، والأشعرى وأتباعه وابن فورك أبى بكر محمد بن الحسن المتكلم الأصولى الأديب النحوى واعظ أصبهان والمتوفى سنة ٤٠٦ هـ . أما ابن جنى تلميذ أبى على الفارسى فقد استعرض المذاهب فى ذلك وناقشها وعلّق على الرأى القائل بأنها حكاية الأصوات المسموعات من حنين الريح ، ودوىّ الرعد ، وخرير الماء .... الخ بقوله : « واعلم فيما بعد أنى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع ، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغوّل على فكرى ، وذلك أننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك علىّ جانب الفكر ... فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توفيقا من الله سبحانه وأنها وحى .. وإن خطر لى خاطر فيما بعد يعلق الكف بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنا به

---

(١) أدب الكتاب ص ٣١ طبع السلفية .

وبالله التوفيق » [1] .

٢ - أن الواضع البشر ، وإليه ذهب أبو هاشم ومن تابعه من المعتزلة ، فهى اصطلاح إذن .

٣ - أن ابتداءها وقع بالتعليم من الله سبحانه ، وباقيها بالاصطلاح .

٤ - أن ابتداءها وقع بالاصطلاح وباقيها بالإلهام ، وهو رأى ابن إسحاق إبراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى المكنى بأبى إسحاق والمتوفى سنة ٤١٨ هـ وهو عكس الرأى الثالث ، إلا أن الثالث أقرب تمشيا مع العقل وسنة الطبيعة من هذا الذى قبله .

٥ - أن الألفاظ دلّت بذواتها وطبيعتها على المعانى وهو مذهب عباد بن سليمان الصيمرى .

وممن قال قديما بالتوقيف أفلاطون ، فى حين قال سقراط بالعلاقة الطبيعية بين اللفظ والمعنى . ولهذا نجد ابن جنى فى الخصائص يقول فى باب « إمساس الألفاظ أشباه المعانى » : « وهذا موضع شريف نبّه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول .

قال الخليل : كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة فقالوا صرّ ، وفى صوت البازى تقطيعا فقالوا صرصر . وقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفعلان إنها تأتى للاضطراب والحركة نحو الغليان .. فقابلوا بتوالى حركات الأمثال توالى حركات الأفعال قال ابن جنى : وقد وجدت أشياء كثيرة من هذا النمط ، من ذلك المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير والزعزعة كالقلقلة .. وكذلك جعلوا تكرار العين نحو فرّح وبشّر ، فجعلوا قوة اللفظ لقوة المعنى ، وخصّوا بذلك العين لأنها أقوى من الفاء واللام ... ومن ذلك قولهم : الخضْم لأكل الرطب ، والقَضْم لأكل اليابس ، فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس ... » . أما الجمهور فجوزوا كل واحد من هذه الأقوال السابقة من غير جزم بأحدها » . [1]

ولكل من هذه الآراء أدلته ، وردود عليها وأمور مترتبة على ذلك ، كوجود اللغة دفعة واحدة ، أو مجزأة ، وتطورها أو عدم تطورها ، وجواز الاشتقاق منها أو منعه إلى أشياء كثيرة من نحو هذا ، وإنى أميل إلى أن فى

---

(١) انظر الخصائص ٢ / ١٥٢ فما بعدها . والمزهر طبعة صبيح ١ / ٣١ ، ٣٢ والبلغة ص ١١ - ١٥

اللغـة عنصـرا من الإلهـام هو مـا يعـبـر عنه بالحسّ اللغـوى ، يظهـر حين النطق ببـعض الكلمات نطقا صحيحا من غير الوقوف من قبلُ على حقيقتها ، وكذلك فى قياس الطفل بعض عمليات التصغير ، والصفات وغيرها .

وقـد عـرضت هذه الآراء مـوجـزة لما يتـرتب على ذلك من قـيم عـمليـة ، إذ الذين يقـولون بالتوقـيف يمنعون القلب فى اللغة مطلقا ، فى حين يجـوز فـيـهـا على القـول بالتـوفـيق والاصطلاح ، وكـذلك رتّب ابن درستويه القـول بإبطال القلب والزيادة والترادف والأضداد فى اللغـة ، على أنهـا إلهـام وتوقـيف . وكـذلك الذين ينفون الصلة الطبيعية بين اللفظ والمعنى يقـولون بوقـوع الأضـداد فى اللغـة وهكذا . والحق أن الكلام فى نشـأة اللغـة ضـرب من الحدس ونوع من الاستطراد .

والعـربيـة تعـدّ أقرب اللغـات السامية إلى الأصل الذى تشعبت عنه ، ذلك لانعزال أهلها فى جزيرتهم وحرص العربى على لغته وحفاظه على نقائها واعتزازه بها ، إلا أنها بالرغم من ذلك لم تقف جامـدة أمام مرّ العـصـور ، فـقـد طرأ عليها ما غيّر معالمها ووسع دائرتها من ناحية ، وجعلها ثابتة من ناحية أخرى .

وهذا مـا جعل المؤرخين لهـا يقـسـمونهـا إلى عصـور جاهلية وإسلامـيـة وفروعـهـمـا فـقسـمها جـورجى زيدان إلى ثمـانيـة أدوار منهـا ثلاثة ترجع إلى الزمن والخمسة الباقية إلى الألفاظ ذاتهـا . وأرى أن هذه التـقـسـيـمـات عـديمة الجدوى ؛ لتداخل عصـور اللغـة وإن تبعت فى تطورها الظروف التـاريخـيـة والاجـتـمـاعـيـة والحضـارية ، ذلك لأن التطور اللغوى قد تبدو جذوره فى عصر ما ونتائجه فى عصر لاحق ، كـمـا أن الكسب اللغـوى يكون ضـئـيـلا عـادة وخـاصـة فى العـربيـة ، إذ تقـابله خسـائر من ناحية أخرى [١]

ورغم اعتراضى على تقسيمها إلى عصور فقد ارتضيت تقسيمها إلى الجاهلية والإسلامية حيث كان الإسلام ثورة حقيـقـيـة فى كل شئ ، ولبـروز أثرها واتسـاع الزمن فـيـهـا مما سـمح بالتطور ، على أن الزمن أرفع من المكان فى مرتبة التجديد ، فـالخلاف بين جيلين فى مكان واحـد أوضح منه بين جـيل واحـد فى مكانيين مختلفين .

والجاهليـة والإسلام دوران من أدوارها عند جورجى زيدان . وكـانت هناك مظاهر للغـة فى

(١) اللغة كائن حى . طبع الهلال ص ٩ ، ٣٣ ، ٣٤ .

هذه العصور منها : دخول الأعجمى فيها ، والتغيير فى بعض الألفاظ ، وسعتها بعوامل النمو من قبل القلب والنحت والاشتقاق والقياس والإبدال وما إليها ، وسأتكلم عن هذه الآثار أوجّلها على الرغم من وجود الظاهرة الواحدة فى أكثر من عصر ، وسأنص على العصر ما أمكن ذلك ، مع تعداد العوامل التى دعت إلى هذه الآثار على وجه التقريب ، من عوامل خارجية وسياسية واجتماعية ، وأخرى ترجع إلى اللغة ذاتها ووسيلة توارثها . وأخيرا إلى عوامل بلاغية .

(٢) تطور العربية

هذا عن أصلها وأقسامها ، أما عن تطورها – والتطور سلاح ذو حدين – فأبدأ بأثر العوامل السياسية والاجتماعية والخارجية فأجد من ذلك :

أ – احتكاك اللغات وأثره : إذ اللغة ما هى إلاّ إنعكاس للضمير البشرى ، وهى ظاهرة اجتماعية ككل ظواهر الاجتماع ، كائن حى ينمو ويتكاثر ويتولد ، ولهذا تطورت لغتنا فى حدّى التطور بالنقص والكمال النسبيين ، فكان تطورها مظهرا لتطور الجماعة ، فلم يكن العرب بمعزل محكم عن الأمم الأخرى ، فقد تاجر تجار مكة مع الآراميين فى دمشق ، ومع الفرس فى الحيرة والمدائن ، ومع سبأ وحمير فى اليمن ، وكانت الآرامية من أهم لغات النصرانية التى اعتنقها بعض القبائل العربية ، وكانت منها اللغات الحبشية أيضا[١] .. الخ فقد وجد أن نقش النمارة فى الحرة شرق جبل الدروز يتأثر خطه بالخط النبطى و معلوم أن قريشا أهل تجارة كما حكى عنهم القرآن ، كانوا يسافرون شمالا إلى الشام والعراق ومصر ، وجنوبا إلى بلاد اليمن وشرقا إلى بلاد فارس وما وراءها وغربا إلى بلاد الحبشة قال تعالى « لإيلافِ قُريش إيلافِهِم رِحلَةَ الشتاءِ والصَّيفِ . فليَعبُدُوا رَبَّ هذا البيتِ . الذى أطعَمَهم مِن جُوعٍ وآمنَهم مِن خَوفٍ »[٢] .

وكانت الكعبة قبلة الهنود والفرس والأنباط واليمنيين والأحباش والمصريين ، عدا من نزحوا إليها من جالية اليهود والنصارى ، فاقتبس العرب منهم وعرّبوا وخاصة فى القرنيين الأول والثانى قبل الإسلام بنزول الحبشة والفرس فى اليمن والحجاز على أثر استبداد ذى نواس ملك اليمن الذى كان يهوديا [٣].

(١) اللغة كائن حى . طبع الهلال ص ٩ ، ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) اللغة كائن ص ٣٠ – ٣٢ .

مما قصه القرآن فى سورة « البروج » فامتزجت لغة العرب بلغات هؤلاء واستعارت وأعارت، واقتبست من لغة الفرس أكثر من سواها حتى قيل بفارسية كثير من الألفاظ وإن كانت فى الحقيقة غير فارسية. وفى فجر الإسلام وقُبَيْله دخلت مصطلحات فى أغراض متعددة كالديوان والرزق والمرزبان والفرسخ.

ومن الألفاظ الدينية: الدين والجُناح والمجوس والنيروز، ومن ألفاظ ما يستورد من فارس: الصولجان والمسك والديباج والاستبرق والإبريسم. ومن أقدم ما دخلها من اليونانية: إبليس والقرطاس. أما الألفاظ اللاتينية فدخلت اليونانية ثم أخذتها الآرامية ومنها إلى العربية كالصراط والميل والقصْر والقنطار والدينار. ومن طريق الحبشية: الإنجيل، والقلم، ومن الفارسية الدرهم، وبعض ما نظن أنه حبشى جاء عن طريق العربية الجنوبية كخوخة ومشكاة وسكة. وبعض الألفاظ الآرامية دخلت عن طريق الحبشة كقدوس وتابوت وجهنم، كما دخلها ألفاظ أكّادية كالدّين بمعنى القضاء والحكم، والسبت، وسطر بمعنى كتب، والتلميذ والجص ومن السوهرية الهيكل، والآسى: الطبيب، والكرسى [1] وغير ما سبق كثير مما ظهر فى شعر الأعشى كقوله:

وعَلال وظلال بارد
وفَلِيج المسك والشاهسفرنْ [2]

وهو نوع من أنواع الرياحين وهو الملكى وفارسيته شاهسفرمْ. وقد نزل القرآن - فى غالبه - بلغة قريش حيث تضافرت عوامل دينية وسياسية واجتماعية على سيادتها وتوحيد اللغة ممثلة فيها، كما جرى فى أسواق العرب مما يحتاج إلى لغة موحدة فكانت لغة قريش إذ كانوا أهل سدانة البيت والمشرفين على شئون الحجيج من سقاية ورفادة وما إليهما، ولما لهم من سطوة وقوة، ولتخيرّهم من اللغات واللهجات أحسنها حتى قيل «ارتفعت قريش فى الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضّجع قيس، وعجرفية ضَبّة، وتلتلة بَهْراء». [3]

فالعنعنة قلب الهمزة عينا يقولون فى أنّ عنّ كما فى شعر ذى الرمة، والكشكشة

---

(١) المصدر السابق ٣٤ - ٣٨ وهامش ٣٥، ٣٧

(٢) مختار الشعر الجاهلى ٢ / ٢١٧

(٣) المجالس تحقيق هارون ص ..١ القسم الأول. ذخائر العرب والمزهر ١ / ٢١١

ونسبت إلى قبيلة أسد: إبدال الكاف شينا نحو عليش فى عليك وجاءت فى شعر المجنون :

فعيناك عيناها وساقك ساقها

سوى أن عظم الساق منش دقيق

أو هى إلحاق الكاف بالشين نحو عليكش فى عليك ، والكسكسة نسبت إلى ربيعة وهى وصل كاف بالسين عليكس . والتلتلة كسر حروف المضارعة كتِعلمون ، والتضجع الإمالة والخفض . والعجرفية التقعرّ فى الكلام وهى لغات مذمومة ومنها التكلع والغمغمة والطمطمانية واللخلخانية والفراتية .

وفى القرآن القليل من اللهجات الأخرى واللغات نحو الرفث بمعنى الجماع لمذحج ، وأفيضوا بمعنى انفردوا لخزاعة ، والمسجور : المتلئ لعامر بن صعصعة ، والبغى : الحسد لتميم. وقسورة : الأسد لأزد شنوءة ... الخ كما جاء فيه ما وافق اللهجات الأخرى كموافقته النبطيـــــة فى « هَيْتَ لكَ » بمعنى هلمّ ، والفارسية فى الإستبرق بمعنى الديباج الغليظ والرومية فى الرقيم : الكلب أو اللوح ، أو الدواة . والسريانية فى : سَرِيًا : أى جَدْوَلا ، والحبشية فى مشكاة بمعنى الكوة إلى غير ذلك من لغات ثقيف والعمالقة وسدوس وسعد العشيرة وهذيل وغيرها [1] .

وقد رتبت القبائل حسب نصيبها من الألفاظ القرآنية ترتيبا تنازليا فكانت :قريش، هذيل ، كنانة ، حمير ، جرهم ، تميم وقيس عيلان ، أهل عمان وأزد شنوءة وخثعم وطيئ ومذحج ومدين وغسان . بنو حنيفة وحضرموت وأشعر ، أنمار وخزاعة وبنو عامر ولخم وكندة ، سبأ وأهل اليمامة ومزينة وثقيف : وأخيرا العمالقة وسدوس وسعد العشيرة . وهذا الإحصاء يؤيد أفصحية القبائل التى ذكرها الفارابى فى نصه عن جمع اللغة وهو نص مشهور ، قال فى أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعًا ، وأبينها إبانة عما فى النفس . والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم أتكل فى الغريب وفى الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض

(١) انظر اللغات فى القرآن رواية إسماعيل بن عمرو ، ورسالة فيما ورد فى القرآن من لغات القبائل لأبى القاسم بن سلام على هامش الجلالين طبع الحلبى .

كنانة وبعض الطائيين . ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لامن لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ... [1] .

ب - الإسلام : حدّث عنه ولاحرج ، فهو الحدث الأعظم الذى غير مجرى الحياة العربية فى عقائدها وعاداتها وسياستها ، شمل هذا التغيير فيما شمل اللغة فوسعها بما جد من مصطلحات شرعية كالفاسق والمنافق والصلاة والزكاة والحج وغيرها مما صار حقيقة شرعية له مفهوم خاص فى الإسلام فليس المفلس الذى عليه كذا وكذا أو الذى لا يملك كذا ، ولكنه قيس بمعيار الإسلام فهو الذى ليس له حسنات الخ . كما أمات الإسلام ألفاظا جاهلية كالمرباع والنشيطة والفضول بموت معانيها ، وقد جاءت فى الشعر الجاهلى :

لك المرباع فينا والصفايا
وحكمك والنشيطة والفضول

أشياء يصطفيها الرئيس لنفسه دون القوم ، وقد أبقى الرسول بعض الصفايا ، وكذلك « أبيت اللعن » لأنها تحية الجاهلية أى أبيت أن تأتى ما تلعن عليه على سبيل الدعاء ، عم صباحا أو مساء وأبدلهم منها بالسلام . كما فرق الرسول فى حديث له بين تحية الموتى وتحية الأحياء . فكان التغيير إذن فى المفردات والأساليب على السواء ، بل حرم الشعر الدينى عند العرب وروايته فلم يبق منه إلا ما اتفق وروح الإسلام ، كما فى شعر أمية بن أبى الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة الإيادى ، ومن على شاكلتهم من المتحنفين ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قصيدة الأفوه الأزدى التى مطلعها :

إن تَرَى رأسى فيه نَزَع
وشَواتى خلّة فيها دُوار

لما فيها من ذكر إسماعيل عليه السلام .

واستدعت العلوم العربية المستحدثة ، والإسلامية بطبيعتها مصطلحات كالسجود والركوع والإيلاء والظهار والتعزير والإباق الخ ومصطلحات لغوية مما فى النحو والعروض والإعراب كالرفع والنصب والخفض ، والبلاغة

---

(١) المزهر تحقيق أبى الفضل ٢١١/١ ، ٢١٢

من مجاز وحقيقة وغير ذلك مما اقتضته الدواوين ورسوم الملك كالكتابة والحجابة والإدارة والحسبة والجباية والخراج والتوقيع وهذا قُلّ من كُثْر .

ولم يقف أثر الإسلام عند الحد من ألفاظها فى ناحية ، والتوسع في ناحية أخرى ، فقد دأب الرسول صلى الله عليه وسلم على تغيير الألفاظ المستقبحة إلى ألفاظ أضدادها ، ومعلوم بداهة أن التغيير استغرق زمنا حتى رسخ فى الأذهان واعتادته الألسنة بل ربما بقى الأصل وبديله، القديم والحديث جنبا إلى جنب، فسميت يثرب المدينة لأنها من التثريب واللوم (تاج العروس : ثرب وطيبة) وجاء وفد فقال لهم النبى من أنتم فقالوا: بنو غيان، فقال : بل أنتم بنو رشدان . وقال سعيد بن المسيب أراد النبى أن يغير اسم جدى ويسميه (سهلا) فأبى وقال لا أغير اسما سمّانى به أبى فما زالت فينا تلك الحزونة بعد (القاموس: ابن حزن) . وراشد بن عبدربه السلمى كان اسمه (غاوى بن عبدالعزى) فسماه النبى راشد بن عبدربه . وقبيلة « بنو الزنية » وفدوا على النبى . . فقال لهم بل أنتم بنو الرشدة ، وسمى زيد الخيل بزيد الخير، وكرهت التسمية ببعض الألفاظ قال الكميت :

فأما الأزد أزد أبى سعيد

فأكره أن أسمّيها المزونا

كما غير العرب بعض الألفاظ من أجل التطير ، فحولوا (الدفينة) إلى (الدُّثَينة) قال النابغة الذبيانى :

وعلى الرميثة من سكين حاضر

وعلى الدثينة من بنى سيّار

يروى وعلى الدمينة ، والدُّثينة بزينة الدفينة وهى منزل لبنى سليم(١) .

جـ - جمع اللغة وسعة اللهجات : ظلت الأمة العربية متعصبة فى أيامها الأولى وخاصة عند الأمويين إلى أن جاءت دولة العباسيين فقامت على أكتاف الفرس فى بدءها والأتراك فى آخرها ، وقام الصراع بينهم خلالها ، فتوغلت الحضارة الفارسية بمستحدثاتها وتطورت اللغة ، وجاء جامعو هذه اللغة فوجدوا أنفسهم أمام لغة موحدة هى لغة قريش ولهجات أقوام يحيطون بها فجمعوا كل ما سمعوه ولم يفرقوا بين لهجة ولهجة ، ولا بين قبيلة وقبيلة إلا من حيث احتفاظها

---

(١) أنظر شرح شواهد المغنى ١٠٨ وتاج العروس : زنى ، مزن فالمزون قرية بعمان يسكنها اليهود والملاحون ، وتاج العروس : دثن ومعجم ما استعجم ٩٢٥/٣ ، ٥٤٣/٢ ومعجم البلدان ٢٦/٤ ، ٢٧ .

بنقاء اللغة وعدم مخالطة الأجانب أو لصفاء لغتها وتخير ألفاظها كما فى لغة قريش وقد مضى نص الفارابى فى ذلك من قبلُ . وقد شغفوا بتقديس اللغة وادّعاء اتساعها حتى قال الشافعى : كلام العرب لا يحيط به إلا نبى . ذلك القول الذى استحسنه ابن فارس فى الصاحبى[1] . بل ذهبوا يتفاخرون بذلك قال ابن فارس فى باب أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها : « . . . وإن أردت أن سائر اللغات يبين إبانة العربية فهذا غلط ، لأنا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد وأين لسائر اللغات من السعة ماللغة العرب »[2] ثم نقل كلام بعض العلماء عن الاستعارة والتمثيل فى القرآن وأنه لا يمكن نقله إلى لغة أخرى لهذا! . وما نقله ابن فارس هو فى الحقيقة لابن قتيبة فقد تناوله فى مشكلة . ثم ضرب ابن فارس الأمثلة المختلفة لما اختصت به لغة العرب من قلبهم الحروف عن جهاتها ، وتركهم الجمع بين الساكنين والإدغام والترادف الذى ألف العسكرى بسبب منه كتابه «الفروق اللغوية» وبعض التعبيرات الخاصة بهم ، مما عده العرب ميزات وخصائص للعربية ، وعدّه الطاعنون عليهم من عيوب اللغة مما انتهزه الشعوبيون أيما انتهاز فعابوا على اللغة هذا الترادف والقلب والتضاد وما إلى ذلك ، وقد جاء مثل ذلك الفخر بسعة العربية وفضلها عن أبى حيان فى مقابساته : المقابسة ٨٨ وبمعيار العلم الحديث لا تفضل لغة لغة إلا بمقدار وفائها بحاجة أصحابها ، وهذا ما حدا ابن درستويه إلى رأيه فى هذه الخصائص . فمما يدل على تمسكهم بغنى العربية ذلك السيل الجارف من الترادف الذى أهمل كثير من أسبابه الأساسية ، ونظر فيه إلى الألفاظ بحالتها الراهنة دون ما نظر إلى التطور اللغوى وما بين الألفاظ من فروق قد نسيت ، مما جعل اللغة تسير من ظاهرة التخصيص والدقة إلى ظاهرة التعميم فى المفهوم والمضمون . وسار العلماء فى هذا المضمار تكثرًا وحذارا من أن يقال أهملوا شيئا مما أثبته السابقون فانظر مقالة ابن الأنبارى وأبى حاتم السجستانى والصاغانى[3] كما رأى ابن السيد

(١) ص ١٨ .
(٢) ص ١٢ فما بعدها .
(٣) رسائل الصاغانى مخطوط رقم ٣٣٦ لغة تيمور ص ٢٢١ ، ٢٤٥ وأضداد الأنبارى ص ١١ .

فى الاقتضاب شرح أدب الكاتب ، رغبة فى التزيد أن القول بإبطال الأضداد كلام لايصح أن يتشاغل به ، وهى نزعة جمود حرمتنا من آراء تراثية قديمة لو نقلها على عهدة قائلها لأفدنا منها الكثير، وقد كرر هذه النزعة عند مناقشته لابن جنى فى القضم والخضم قال :

« فإذا كان الأمر على هذا السبيل كان التشاغل بما تشاغل به ابن جنى عناء لا فائدة فيه » (الاقتضاب ص ١٥٨ ، ١٦٢)

فنزعته إذن - رغم سعة علمه وفضله - التكثر من الأضداد والجمود على القديم ومحاربة الجديد والاعتراض دون إقامة الدليل إلا جوابه التقليدى السلبى «لايصح التشاغل به» فالمحافظون وقفوا فى سبيل التجديد وقد صرح ابن درستويه بالاقتداء بالسابقين وإن كان عن غير اقتناع فقد قال : « وقد ألحق بعض ذلك قوم من النحويين بكتبهم فى الهجاء وإن لم يكن مما يلحق بها ، فرأينا ألا نخلى كتابنا هذا من طائفة مما ذكروا وما تركوا مما يجرى ذلك المجرى » (١) .

دعا العلماء إلى ذلك حب التفاخر وأرادوا إهمال الدارسين لكتب من قبلهم لتسود كتبهم ، وإلى جوار ذلك كانت نزعة القول بضياع كثير من اللغة قال ابن فارس فى باب القول على أن لغة العرب لم تنته إلينا بكليتها وأن الذى جاءنا عن العرب قليل من كثير ، وأن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله :

« ذهب علماؤنا أو أكثرهم إلى أن الذى انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل »(٢) وعقب على ذلك بالاستحسان وضرب الأمثلة . وهاتان النزعتان ، نزعة التكثر والجمع للغة ، ونزعة الذهاب إلى ضياع أكثرها جعلتا العلماء يتلمسون ما ذهب من اللغة وكان لهم من هذا خير ملجأ يلجئون إليه فى تعليلهم ما يقولون كما فعلوا فى تناولهم لفظ الجدف والجدث(٣) . بل أوّل بعضهم اللغة نفسها وألفاظها لتتمشى مع فهمهم المجانب للصواب قال ابن قتيبة عند تفسير قوله تعالى « وذا النون إذ ذهب مغاضبًا » الأنبياء آية ٨٧ : « قال أبو محمد : يستوحش كثير من الناس أن يلحقو بالأنبياء ذنوبًا ويحمله التنزيه لهم عليهم السلام على مخالفة كتاب الله

---

(١) كتاب الكتاب له ص ٧٦ - الطبعة الثانية

(٢) الصاحبى طبع السلفية ص ٣٤ .

(٣) تاج العروس : جدف

واستكراه التأويل ، وعلى أن يلتمسوا للألفاظ المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة التى لا تخيل عليهم ، أو على من علم منهم أنها ليست لتلك الألفاظ بشكل ولا لتلك المعانى بلفق »[1] .

د - أثر المذاهب والأفكار : كما كان لاختلاف الأفكاروالمذاهب الإسلامية أثرها كذلك فى اللغة ، فالأندلسيون يسمون النرجس البهار واسمه فى اللغة : العَبهر . والزمخشرى مثل المعتزلة يرى أن جعل بمعى خلق ، ففى الأساس له : جعل الله الظلمات والنور : خلقهما ، وأرادها بهذا المعنى فى خطبة كشافه [2] كما جعلوها أيضا بمعنى بيّن لا بمعنى فعل ، قال الشاعر :

جعَلنالهم نهْجَ الطريق فأصبحوا
على ثَبَت مِن أمرهم حَيْث يَمَّموا [3]

وجعل الزمخشرى « لن » للنفى مع التأكيد والتأييد ، توصلا إلى نفى رؤية الله تعالى وفى تاج العروس : لن : « ... ولا تفيد توكيد النفى ولا تأييده خلافا للزمخشرى فيها فى قوله تعالى « لَنْ ترانى » وهما دعوى بلا دليل ، وفيه دسيسة اعتزالية ، حملته على نفى الرؤية على التأبيد ، ولوكانت للتأبيد لم يقيد منفيها باليوم فى قوله تعالى « فلنْ أكلّم اليومَ إنْسيًا » مريم آية ٢٦ ولكان ذكر الأبد فى قوله تعالى « ولَنْ يَتَمنَّوه أبداً » البقرة آية ٩٥ تكرارا والأصل عدمه » .

هـ - الحياة والموت فى اللغة : سبق شىء من ذلك فى الكلام عن أثر الإسلام واللغة ظاهرة اجتماعية يعتريها ما يعترى الأحياء من صحة أو اعتلال وموت ، فقد هجرت على مر الأيام ألفاظ ولغات ورفضت أصول لبعض الكلمات ، وأباحوا للشاعر عند الضرورة مراجعة هذه الأصول المرفوضة . هذا وغيره زاد العربية وآدابها تعقيدا ، فقد كان بعض النحاة يرى أن الكلمة تروى على ماهى عليه وأن ذلك أيسر من الرجوع إلى الأصل ، فقول الشاعر :

أرى عينى ما لم ترأياه - يقول فيه الزجاج إنه رُدَّ إلى أصله ويرى المازنى أن يروى بغير همز تخفيفا :ما لم ترياه - لأن ارتكاب الزحاف عنده أيسر من الرجوع إلى الأصل . فاستعمال الأصل المرفوض عندهم داخل فى باب الضرورة

---

(١) القرطين للكتانى ٢١/٢ ، ٢٢ طبعة أولى للخانجى
(٢) حياة الحيوان للدميرى ١٥٨/١ نقلا عن تاريخ ابن خلكان وغيره .
(٣) ظهر الاسلام ٤٢ .

كقول الشاعر : وصاليات ككما يؤثفين [١] - وكذلك قول له رؤبة : بلالُ خيرِ الناسِ وابن الأخير - وعليا . وجه ابن جنى قراءة « الأشرّ » بتشديد الراء « سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » وقال إنه الأصل المرفوض [٢] . واماتت العرب ماضى يدع ويذر ولم تستعمل المصدر من الأفعال : نذر بالشئ وعسى وليس استغناء عنها بأن والفعل [٣] كما أميت الثلاثى من اكلأز [٤] وقللت من استعمال حبّ وأكثرت من أحب ، ثم أبقت « محبوب » دلالة على حبّ الثلاثى .

كل هذا عقّد قواعد اللغة ، خاصة عندما قعدت القواعد بعيدة عن أصلها اللغوى ، ودارت الفصاحة عندهم على كثرة الاستعمال ، فكانت القواعد للموجود دون المفقود مع أن المفقود قد يكون هو الأفصح ، كما رأى ابن درستويه ذلك أخذا من مدلول لفظ «الفصاحة» فالعرب عنده قد تستغنى بفصيح عن فصيح آخر ، بل إنها أى الفصاحة عنده ما أفصح عن المعنى واستقام لفظه على القياس وهو مذهب قد انفرد به ، كما أن هناك عوامل بلاغية أثرت فى اللغة منها :

المجاز ، وأعنى هنا معناه العام ، فثمت نصوص تشير إلى أن العرب لم يفرقوا بين الحقيقة والمجاز ولم يقسموا لغتهم إلى حقيقة ومجاز الا فى عصر متأخر قال ابن تيمية : فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إنما اشتهرت فى المائة الرابعة ، وظهرت أوائله فى المائة الثالثة ، وما علمته موجوداً فى المائة الثانية ، إلا أن يكون فى أواخرها [٥] . ومن أجل هذا حدث خلط بين الحقيقة والمجاز حيال القرآن نفسه وأحاديث الرسول فحينما نزل قوله تعالى « وكُلوا واشْرَبوا حتّى يَتبيَّن لكم الخَيْطُ الأبيضُ من الخَيْط الأسْود من الفَجْرْ . » روى عن عدى بن حاتم قال : عمدت إلى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتى فنظرت إليهما فلم يتبين لى الأبيض من الأسود فأخبرت النبى عليه السلام بذلك فقال : إنك لعريض القفا ، أى سليم القلب ؛ لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته - إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل [٦] ومن أجل هذا ونظائره نجد أبا عبيدة على حق فى

---

(١) شرح شواهد المغنى ١٧٢ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ (٢) المحتسب المخطوط ٣٠٨ (٣) المصدر السابق ١٧٧
(٤) تاج العروس : كلمة (٥) فى القول ص ٦٩ نقلا عن كتاب الأيمان لابن تيمية ، وانظر المجمع العلمى المجلد ٣١ ج ١ /١٢٣ ، ١٢٣
(٦) تفسير النسفى ١/٧٥ البقرة آية ١٨٧

وضعه كتاب « مجاز القرآن » والرضى فى المجازات النبوية ؛ فقد ضحك الصحابة حينما جاءت الرسول امرأة مسنة فقالت إنى يتيمة ، فرد عليهم الرسول ضحكهم وقال كل النساء يتامى ، أى ضعيفات ، ذلك لأن الحقيقة كانت تتبادر إلى الذهن دون المجاز ومن ثم احتاج المجاز إلى القرينة . وفى خبر الحجاج مع ليلى الأخيلية أنه حينما أنشدته قصيدة لها وبلغت أحد أبياتها قال له الحجاج : قاتلها الله ، ما أصاب صفتى شاعر منذ دخلت العراق غيرها ، ثم قال يا غلام : اذهب بها إلى فلان فقل له : اقطع لسانها قال فذهب فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها فأمر بإحضار الحجام فالتفتت إليه وقالت له : ثكلتك أمك أما سمعت ما قال : وإنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة والبرّ . فبعث إليه يستبينه فاستشاط الحجاج غضبا وهم بقطع لسانه [1] . وحسبك أن هذا حدث فى العصر الأموى الذى كان شديد التعصب للعرب والعربية ، مع أن العرب ورد عنهم من المجاز الكثير ، وتناقله عنهم الرواة ، وظهر واضحا فى الشعر والأدب

فقد أنشد العسكرى فى كتاب الأوائل :

يَسْقُون آبالَهم بالنار
والنارُ قد تَشفِى من الأوُار

وقالوا نارُها نجارُها . [2] كما نشأت أساليب اتسع فيها ، فتنوسى أصلها وكانت لمناسبات خاصة ، من ذلك « رفع عقيرته بالغناء » وأصل ذلك أن رجلا قد عقرت رجله فكان يضعها على الأخرى راحة لها ويغنّى ، فقيل هذا التعبير فى الغناء،ومثل ذلك ما كان يرتبط بالعادات العربية القديمة ، فقد كانوا يقولون للمعرس : بان ، وقد بنى بأهله . [3] وحسبك أن تتبع الألفاظ : الراوية ، الوغى ، القحبة ، النجو ، الغائط ، الظعينة ، المجد ... الخ [4] لتدرك تطور اللغة وأن كل كلمة تحمل معها تاريخها ، مما ينبىء عن احتياجنا إلى المعجم الكبير . ونحن أمام هذه الألفاظ والتعابير بين أمرين : العلم بأصلها أو الجهل به ، فمما نعلم مبدأ استعماله الكناية فأول من سبق إليها فى الشعر الجعدى بقوله :

أكنى بغير لهمها وقد علم اللهُ خفيّات كُلِ مُكْتتم [5]

وقد تقدم عمر بن الخطاب ألا

(١) الجليس والانيس مخطوط المجلس الحادى عشر وشرح شواهد المغنى / ١ - ٢٠

(٢) المصدر السابق ١٠٨

(٣) درة الغواص ٤٥ او المنتخب من كنايات البلغاء للجرجانى ١٦

(٤) تاج العروس : روى والصناعتين ٦

(٥) شرح شواهد المعى ٢١٠

يشبّب رجل بامرأة إلا جلده فكنى حميد بن ثور عن المرأة بالسَّرْحة فى شعره فقال :

أبىَ اللهُ الاَّ أنّ سَرحة مالك
على كل أفنان العضاه تَروُقُ
وهل أنا إنْ علّلت نفسى بسَرْحة
مِن السَّرحْ مأخوذ علىَّ طريقُ [1]

و «مات حتف أنفه» وهم كأسنان المشط[2] من قول الرسول وأوّلياته .

و « أسقط فى يده » تعبير إسلامى . والحطيئة أو من قال «أعط القوس باريها» [3] وخالد بن برمك أول من كنى عن السؤال بالزوار، حتى قال فى ذلك يزيد بن خالد الكوفى المعروف بابن حَبيبات الشعر [4] وإن كان الصولى ذكر هذا الخبر وأسند القول للمساور بن النعمان ، لا خالد بن برمك ، وذكر شعر زياد الأعجم فى ذلك [5] . وهذا الخبر وإن حمل تضاربا فى إسناده يلقى الضوء على مصدر هذه التسمية . وهكذا بشئ من الصبر نعرف تاريخ الكلمات ونقف على السر فيما عُدّ شاذا ونلمس بُعد نظر ابن درستويه فى التطور اللغوى ، وأن اللغة كانت بحاجة إلى التهذيب وما زالت وحقّا فَعَلَ .

النادرة والمثل :

ولا ننسى أثر النادرة والمثل فى اللغة فالصيفَ ضيعتِ اللبن يقال للمذكر والمؤنث بصيغة واحدة ، قال الحريرى فى درته : ويقولون للندّ المتخذ من ثلاثة أنواع من الطيب مثلث والصواب فيه مثلوث ... وأصل هذا الكلام مأخوذ من قولك ثلثت القوم فأنا ثالث وهم مثلوثون . قال الشيخ الإمام رحمه الله : وقرأت فى بعض النوادر أن إبراهيم بن المهدى وصف لنديم له طيب ندّ اتخذه وأتاه بقطعة منه فألقاها فى مجمرة ووضعها تحته فخرجت منه ريح فى أثناء تجمره فقال : ما أجد هذه المثلثة طيبة فقال : أى فديتك قد كانت طيبة حين كانت مثلثة فلما ربّعتَها خبثت . قال الشيخ الإمام رحمه الله : وإنما قلت مثلثة لأن النادرة تحكى على الأصل ، ولا يغير ما فيها من اللحن ، ولا من سخافة اللفظ ، ولهذا قال بعضهم : إن ملحة النادرة فى لحنها وحرارتها فى حلاوة مقطعها » [6] . وذلك لأن العرب كانت تعتز بالنادرة وتجعل لها حرمة فلا تتطرق إليها يد الإصلاح ولا يعاب صاحبها

---

(1) المصدر السابق ١٤٣ ، ١٤٤
(2) السابق ١٨١ والكنايات ١١٩
(3) شرح شواهد المغنى ١٦٣ نقلا عن شرح الكامل للبطليوسى
(4) الكنايات للثعالبى ٤٢ ، ٤٣
(5) الكنايات للثعالبى ٤٢ ، ٤٣
(6) درة الغواص ٨٣

بهذا الخطأ . وكذلك لا تغير الأمثال ، ولهم في ذلك تعليل لطيف،قيل للقومسى : لم تقبل النادرة ولا ترد؟ فقال : كأن المعنى فى هذا القول أن النادرة ليست مملولة لأنها غير معهودة ولا مرددة ، فهى لا تستحق الردّ ، ألا ترى أنها تعهد إذا قدرت ، ولها حرمتان تقدمنها : حرمة الغريبة وذمام الزائرة البعيدة ، فهى لذلك ليست كأخرى قد عهدت وملّت وقلّيت »[1] . فهذا القول يدل على أنهم يجعلونها ضيفا وزائرة وغريبة بينهم لها حرمة لا تمسّ وقد أوضح ابن درستويه أن للأمثال هذه القداسة [2]. وقد عقد السيوطى فى مزهره فصلا للأمثال ذكر فيه أقوالا للصولى وغيره فى هذا الشأن . قال المرزوقى فى شرحه للفصيح : « المثل جملة مقتضبة من أصلها ، أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها ، من غير تغيير يلحقها فى لفظها ، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعانى ، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التى خرجت عليها ، واستجيز من الحذف فى ضرورات الشعر ما لا يستجاز فى سائر الكلام » وقال أيضا : « من شرط المثل ألا يغير عما يقع فى الأصل عليه » [3].

وعلى هذا الأساس قيل : « أجناؤها أبناؤها » أى الذين جنوا على هذه الدار بالهدم هم الذين كانوا بنوها ، ولهذا ظن أبو عبيد أن المثل هو : جُناتها بُناتها لا أبناؤها، لأن فاعلا لا يجمع على أفعال إلا أن يكون هذا من النوادر لأنه يجئ فى الأمثال ما لا يجئ فى غيرها. وقالوا : أعط القوس باريها ، بتسكين الياء وإن أصلها الفتح والتحريك[4].

وقالوا « هالك فى الهوالك » وعسى الغوير أبؤساء ، فى المجالس المذكورة للعلماء كثير من مثل هذا لجأ إليه المتناظرون [5] »

الازدواج :

ولا ننسى أثر الازدواج والاتباع فى اللغة فَحيصَ بَيْصَ ، الكلمة الثانية واوية جاءت بالياء للاتباع ، هذا الازدواج الذى قد يغير مبنى الكلمة وصيغتها إلى مبنى كلمة أخرى قد تضادها فى المعنى ، فقد ضموا الدال من حدث حين قرنوها بقدم لأجل المجاورة والمحافظة

---

(١) المقابسات . مقابسة ٦٩ (٢) انظر رسالتى للدكتوراه « ابن درستويه اللغوى »
(٣) ، (٤) المزهر صبيح ١ /٣٨٨ ، ٢٨٩
(٥) تاج العروس : فرس ، والمجالس المذكورة لوحة ٣٠ ومجالس أبى مسلم مخطوط ٥٩ بدار الكتب المصرية رقم ٩٠٥٨ أدب .

على الموازنة ، وقد نطقت العرب بعدة ألفاظ غيرت مبانيها لأجل الازدواج وأعادتها إلى أصولها عند الانفراد فقالوا الغدايا والعشايا ، وهنأنى ومَرَأنى ، وفعلت به ما ساءه وناءه ، وهو رجْس نجْس وهو أهيس أليس . وقد نقل عن النبى (صلى الله عليه وسلم) ألفاظ راعى فيها حكم الموازنة فقال للنساء المتبرِّزات فى العيد : «أرجعن مأزورات غير مأجورات» وقال فى عوذته للحسن والحسين رضى الله عنهما : «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة [1] ».. الخ وقياسها ملمةٌ ، وقياس الأولى موزورات من الوزر وهو الذنب . هذا وابن درستويه يسمى الازدواج بالاتباع أحيانا ، وابن فارس يفعل ذلك ففى مقدمة كتابه « الاتباع والمزاوجة » يفرق بين ما يسمى ازدواجا وبين ما يسمى إتباعا أو سجعا ، وجمع بين الازدواج والاتباع[2] . كما أن هناك عوامل ترجع إلى طبيعة اللغة ذاتها ورموزها ووسيلة توارثها وتناقلها منها :

أ - طبيعة الحروف :

لقد تناولت الألسنة اللغة عن طريق الإرث والرواية الشفهية جيلا بعد جيل ، لأن الكتابة لم تكن فاشية فيهم ، وإن وجد فى الجاهلية بعض الكاتبين ، فها هو ذا الرسول يفتدى بعض أسرى المشركين فى أول غزوة غزاها بأن يعلم كل أسير يكتب عشرة من المسلمين الكتابة والقراءة ، خاصة وقد حث القرآن عليها فى أول ما نزل من القرآن « اقرأ بِاسْمِ ربِّكَ الذى خَلَق » ، نعم كان هناك كتاب للوحى كعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان وأُبَىّ بن كعب وزيد بن ثابت ، وخالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، والحصين بن نمير ، وزيد بن أرقم بن عبد يغوث ، والعلاء بن عقبة ، وعبد الله بن الأرقم ، وحذيفة بن اليمان [3] . وقد ساعدت الأمية الرواة على الافتعال ووجدوا مجالا رحبا رغبة فى التفاخر ، واستغل العلماء اختلاف الرواة أشنع استغلال ، فعقَدوا بذلك قواعد العربية وعلومها ، فكثير من شواهد النحو تسقطها الرواية ، ويظهر ذلك بصفة خاصة عند المبرد الأديب النحوى فى تعقبه لشواهد سيبويه فى الكتاب .

هذه الكتابة العربية مدعاة لاختلاط

(١) درة الغواص ٤٥ - ٤٧ .
(٢) الإتباع والمزاوجة مخطوط رقم ٥٥ لغة مش دار الكتب الورقات ٥٠ - ٥٢ .
(٣) العقد الفريد وعلى هامشه زهر الآداب ٢ / ٢٠٤ .

الحروف لتشابهها فى الطبيعة كالباء مع التاء، والثاء والياء والسين مع الشين والصاد مع الضاد،والطاء مع الظاء والعين مع الغين وهكذا ، وانعدمت فيها الحركات أول الأمر ، مما كان مدعاة للتصحيف والتحريف ، ولما اخترع الشكل كان نقطا ، فكان اختلاط السين بالشين ذا أثر كبير فى العربية لذا ألف صاحب القاموس كتابه « تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين » تتبع فيه أوهام المجمل فى نحو ألف موضع . ووجدت كتب للفروق بين الضاد والظاء وهكذا . فاختلاط لفظى سمل وشمل كان من نتيجته أن قيل : سمل بين القوم أصلح بينهم ، وسمل بينهم أفسد ، فعدّ من حروف الأضداد ، وفى رأيى أن الأول شمل أى جمع ما تفرق لأن فى الصلح جمعا ، فقد روى بيت قيس بن الخطيم :

أنىَّ سَرَيْت وكنت غير سروب

وتقرّبُ الأحلامُ غير قريب

بالباء على رواية ابن دريد ، وبالياء سريت على رواية غيره . وفرق بين معنى السارب الذاهب على وجهه فى الأرض ، والسارى : السائر بالليل . وبيت كعب بن زهير :

لكنها خُلّة قد سِيطَ من دَمها

فجعٌ وولَعٌ وإخْلافٌ وتَبْديل

جوزوا قراءته بالشين المعجمة : شيط ، كما روى بيت المتلمس بالوجهين :

أحارثُ إنالو تُشاط دماؤُنا

تزايَلْنَ حتىَّ لا يَمسّ دمٌ دَما

وكذلك بيت عمرو بن أذينة :

لقد علمتُ وما الإشْراف من خُلقى

أنَّ الذى هو رِزْقى سَوْفَ يأتينى

بالسين والشين ، وقول الشاعر :

أعلّمه الرماية كلَّ يوم

فلما استّدَّ ساعدُه رَمانى

روى بالمعجمة بمعنى الاشتداد ، والرواية الصحيحة بالمهملة، استد من السداد الذى هو الصواب . وسمّت العاطس وشمته من هذا الباب، فمن أهملها دعاله بالبقاء على سمته ، ومن أعجمها دعا له بأن يسلب عنه شامته، أى لا يصيبه شئ فيشمت به عدو . وكذلك الشطرنج بالمهملة لأنه يجعل أسطرا وبالمعجمة لأن اللاعبين يقتسمون القطع شطرين والشطر النصف [1] ، وإن كان هذا يدخل تحت تلعب العرب بالمعرّب من الأسماء كإبراهيم وإبراهام

(١) شرح بانت سعاد ٣٢ ، ٣٣ .

وإبرهم ... الخ ، وروى بيت الفرزدق هكذا :

وإنّ الذى يسْعىَ لِيُفْسِدَ زَوْجتى

كساعٍ إلى أسْدِ الشَّرى يَسْتَبيلها

فتعب أهل الأدب والنقد فى تفسير البيت على هذه الرواية ، والصواب روايته يشتبيلها بالشين ، ويؤيد هذا ما جاء فى كتاب الحيوان فقد ورد فيه « يشتُبيلها »[1] بدل يستبيلها ، وفسره بأن معناه يأخذ أشبالها أى أولادها ، وغير ذلك كثير مما تضمنته بطون الكتب كالتصحيف والتحريف للعسكرى ، وكتصحيف المحدِّثين وغيرهما .

وأما عن غير السين والشين فكتصحيف بيت ذى الرمة :

...... فيها الضفادعُ والحِيتانِ تُصْطَخب

- مما جعل أبا على الأصبهانى يقول للأصمعى : أىّ صوت للحيتان ياأبا سعيد ، إنما هو تصطحب بالحاء المهملة ، أى تتجاور[2]» ، وأنشد بلال بن أبى بردة وذو الرمة حاضر - لحاتم طيئ :

لَحى اللهُ صُعْلوكا مُناهُ وهمُّه

من العيْش أنْ يَلقَى لَبوُسا وَمُطْعما

يرى الخمس تَعْذيبا وإنْ يَلْقَ شَبعة

يَبِتْ قلبُه من شدة الغمِّ مُبْهَما

فأنكر عليه ذو الرمة وقال : إنما هو الخمص من خماصة البطن ، ورد عليه بلال بقوله : كذا أنشدنى رواة طيئ[3] .

وأنشد ابن دأب :

وهُمْ مَنْ وَلَدُوا أشْبَوا   بِسرّ الحَسَبِ المَحْضِ

فقال أسنوا يعنى ارتفعوا . فبلغ ذلك أبا عمرو فقال : أخطأت استه الحفرة ، إنما هو أشبوا أى كفوا ، أما سَمِع قول الآخر :

وذو الرُّمْحَيْنْ أشْبَاكَ   من القُوةِ والحَزْمِ[4]

وقد ضرب السيوطى فى مزهره أمثلة كثيرة لما أخذ على العين والصحاح من التصحيف والتحريف[5] .

والتصحيف يكون فى نقط الحروف المتشابهة ، والتحريف أعم ، أوهما مترادفان ، أو أحدهما خاص بالشكل والثانى بالحروف . أقوال .

وفى رأيى أنه ساعد على ذلك ما كان من العرب من حملهم - أحيانا - على الألفاظ لصحة المعانى ، مع ما عرف عنهم من العناية بالألفاظ كذلك - فقد حدث أن أبا العباس المبرد فى مجلس سعيد بن مسلم الباهلى حيث أنشد الأصمعى بيت الحارث بن حلزة :

(١) حياة الحيوان للدميرى ١ / ١١ .
(٢) شرح بانت سعاد ٦٩ .
(٣) التصحيف والتحريف للعسكرى ٢١ .
(٤) المصدر السابق ٢٤ ، ٢٥ والذى أنشده ابن دأب هو لذى الإصبع .
(٥) المزهر . صبيح ٢ / ٢٣٧ ، ٢٤١ وما بعدهما .

عَنَتاً باطلا وظُلما كما تُعـ

ـتزعن حَجْرة الرَّبيضِ الظِّباءُ

فقلت له إنما هو تعتر من العتيرة ، والعتر : الذبح ، فقال الأصمعى تعز أى تضرب وتطعن بالغزه وهى الحربة وجعل يصيح ويشغب، فقلت له تكلم كلام النمل وأصب ، والله لو نفخت فى شبّور يهودى وصحت إلى التنادى ما نفعك شئ ولا كان إلا تعتر ولا رويته أنت بعد اليوم إلا تعتثر فقال الأصمعى والله لا رويته بعد هذا اليوم إلا تعنز [1] .

وقد فسر التبريزى معنى العتر فى شرحه للمعلقات عند حديثه عن هذا البيت [2] .

وقال أبو حاتم السجستانى : قرأ الأصمعى على أبى عمرو بن العلاء شعر الحطيئة فقرأ قوله :

وغَرَرْتنى وزَعَمتْ أَنَّكَ لابنٌ بالصيف تامِر

أى كثير اللبن والتمر فقرأها : لا تنى بالضيف تامُر بتخفيف الهزة يريد لا تتوانى عن ضيفك تأمر بتعجيل القرى إليه،فقال أبو عمرو : أنت والله فى تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة [3]

وحتى بعد تعلم العرب الكتابة كانوا يكرهون النقط، على أن الحركات نفسها كانت نقطا فى بادئ الأمر فكان كثير من الالتباس والخلط . وساعد عليه كذلك قرب مخارج بعض الحروف من بعض ، حتى ألفت الكتب فى ذلك :

كالتصحيف والتحريف لأبى أحمد - وكناه بروكلمان أبا على ٢ / ٢٥٠ - الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى المتوفى سنة ٣٨٢ هـ كما جاء فى الرسالة العذراء لابن المدبر : إياك والنقط والشكل فى كتابك ، إلا أن تمر بالحرف المعضل أى الذى تعلم أن المكتوب إليه يعجز عن استخراجه فلأن يشكل علىّ الحرف أحب إلىّ من يعاب بالنقط والإعجام .

وقال المأمون لكتابه : إياكم والشونيز فى كتبكم ، بمعنى النقط والإعجام ، ولذلك قال ابن هانئ :

لم تَرْضَ بالإعْجامِ حيَن كتبْتَه

حتى شَكَلْت عَليه بالإعْراب [4]

والأبيات بتمامها فى أدب الكتاب للصولى[5] . فكانوا يعتبرون نقط الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه . وحتى القرآن نفسه تطرق الوهم إلى خطأ الكتاب فيه - ولى

(١) المزهر ٢ / ٢٢٥ ، ٢٣٦ .
(٢) شرح المعلقات ٢٦٠ وإنباه الرواة ١ / ٢٢٣ .
(٣) المزهر ٢ / ٢٢٣ .
(٤) الرسالة العذراء ٣٥ فقرة ١٥ .
(٥) أدب الكتاب ٦١.

تحفظ على ذلك - ففى المحتسب لابن جنى : .... ومن ذلك قول ابن عباس أخطأ الكاتب ، إنما هو تستأذنوا يعنى قوله تستأنسوا ، وكذلك يروى عن عبد الله عن أبى : حتى تسلموا أو تستأذنوا وكذلك قرأ ابن عباس[1] » . وفيه أيضا : « ومعنى يؤتون ما أتوا يعطون الشئ فيشفقون ألا يقبل منهم . وحكى عن إسماعيل بن خلف قال : دخلت مع عبيد الله بن عمير الليثى على عائشة (رضى الله عنها) فرحبت به فقال لها : جئتك لأسألك عن آية فى القرآن . قالت أى آية هى ؟ فقال : « الذين يأتون ما أتوا أو يُؤتون ما أتوا » فقالت أيتهما أحب إليك ؟ فقلت لأن تكون يأتون ما أتوا أحب إلى من الدنيا جميعا فقالت سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول « يأتون ما أتوا » ولكن الهجاء حُرِّف [2] .

والمصحف على كتابة عثمان خلا من النقط والشكل ليحتمل وجوه القراءات المأثورة المختلفة .

وقد أرجع جورجى زيدان التصحيف والتحريف إلى قراءة الخطوط وأنه لم يحدث إلا بعد تدوين اللغة [3] . والحق أنه لا يرجع إلى الخط وحده بل قد يرجع بعضه إلى قرب مخارج الحروف ، وبعضه الآخر إلى الاحتمال فى المعنى كما فى استد واشتد وسمت وشمت وأمثالهما ، ماله توجيه صحيح ، أو إلى صعوبة النطق بالحرف وخاصة عند غير العرب إلى غير ذلك من أسبابه . ومعلوم باتساع رقعة الإسلام وجد التعريب والدخيل وفشا اللحن ، وإن كان موجودا من قبل كما سمع الهول يقول عند ما لحن أحد الصحابة « أرشدوا أخاكم فقد ضل » والعرب كانت تجاهده وتكرهه حتى من النساء ، وخاصة الحجاج جاهده من نفسه جهادا وفى ذلك قصص فشاعت تربية ولاة العهد فى البوادئ وقصة إقواء النابغة وإصلاح شعره بالمدينة مشهورة .

وقال أبو بكر « لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فألحن » وقال النبى « أنا من قريش ونشأت فى بنى سعد فأنىّ لى اللحن » . واشتهرت بعض القبائل بالفصاحة وكتب كاتب لأبو موسى الأشعرى إلى عمر : « من أبو موسى » فكتب إليه عمر : سلام عليك أما

(١) المحتسب مخطوط ٢٢٣ من سورة البقرة آية ٢٧ .
(٢) المصدر السابق ٢١٨ .
(٣) اللغة كائن حى ٥٦ - ٥٨ وهامشهما
(١) مراتب النحويين ٥ ، ٦ ، وأضداد الأنبارى ٢١٣ ، ٢١٤ والبيان والتبيين ١ / ٨٢ ، ١٢٧ و مجلة الزهراء م ٣٢ ص ٤٥٦ .

بعد : فاضرب كاتبك سوطا واحدا وأخر عطاءه سنة . وأول لحن سمع بالبادية هذه عصاتى وقصص اللحن كثيرة [1] .

الفروق :

كان من دأب العرب الفرق بين المعانى بالشكل بالحركات كالفاعل والمفعول فضحكة بالتحريك للفاعل مبالغة ، وضُحْكة بالسكون للمفعول مبالغة أيضا وسُبَّة وسُبَبَة ، وحمِل بالكسر للمنفصل وحَمل بالفتح للمتصل ، وفرقت بالحركات بين اللازم والمتعدى فى نحو كَسَا وكَسِىَ ونحوها فلعبت الحركات دورها فى اللغة فقدم يجئ متعديا وهو الكثير كما يجئ لازما قدم بين يديه أى تقدم

قال تعالى « ولا تُقدِّموا بين يَدَىْ الله ورسوله » الحجرات آية ١ وعلى هذا يجوز فتح الدال من لفظ (مقدمة) باعتبار المفعولية لأن الذاكر لها قدمها على غيرها ، وكسرها باعتبار الفاعلية لأنها تقدمت بين يدى المذكور بعدها [2] .

وفرقوا بين المشترك بالمصادر فبغى الشئ إذا طلبه بغية ، وبغى إذا ظلم بغيا بالفتح ، وبغى الضالة بغاية بالضم عن الأصمعى [3] .

وقَنِع يقنعَ قناعة وقَنَع يقنَع قنوعا بمعنيين متضادين ، وكذلك مصدر وجد الضالة ووجد من الحزن أو من الوجدان ... الخ [4]. كما فرقوا بالجمع لاختلاف المعنى فالشجَن بمعنى الحزن جمعه أشجان ، وبمعنى الحاجة جمعه شجون ، وأنشد الجوهرى :

ذكرتُكِ حين استْأمَن الوحش والتقَتْ
رفاقٌ من الآفاقِ شَتّى شجُونُها

أراد حاجاتها ، وروى لحونها أى لغاتها . وأنشد :

أنرىَ الزمان كما عَهِدْت بوَصْلكم
يومَاً يَجودُ لِتَنقضِى أشْجانى

وقولهم الحديث ذو شجون ، أى ذو فنون وأغراض [5].

الحذف والاختصار :

قد حذفت العرب من الكلمة حتى أجحفت بها أحيانا ، فياسين يحتمل أن يراد بها إنسان أو ياسيد إلا أنه اكتفى من جميع الاسم بالسين قال الشاعر :

فباليتينى من بَعدْ ما طاف أهْلها
هَلكتُ ولم أسْمَعْ بها صَوْتَ ياسين

(١) مراتب النحويين ٥ ، ٦ ، وأضداد الأنبارى ٢١٣ ، ٢١٤ والبيان والتبيين ١ / ٨٢ ، ١٢٧ و مجلة الزهراء ٣٢ ص ٤٥٦ .
(٢) المعتبر للزركشى مخطوط دار الكتب رقم ٤٥١ حديث تيمور ص ٤٠٣ .
(٣) تاج العروس : بغى .
(٤) شرح الفصيح لابن درستويه نسختى الخاصة ١ / ١٤١ .
(٥) تاج العروس شجن .

قيل معناه صوت إنسان . وقد حذف الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله « كفى بالسيف شا» أي شاهدا ، ويؤكد ذلك ما ذهب إليه ابن عباس في : حم وعسق ونحو ذلك من أنها حروف من جملة أسماء الله تعالى وهي رحيم وعليم وسميع وقدير ونحو ذلك ، وشبيه به قول الشاعر :

قلنا لها قفي قالتْ قاف - أي وقفت ، فاكتفى بالحرف عن الكلمة [1]. وقولهم قلنا ألاتا : فقالوا ألافا ... الخ .

الاشتقاق :

اشتقت العرب من الفعل ومن الأسماء والجوامد ، فالنيروز بمعنى اليوم الجديد قد اشتقوا منه الفعل كقول على كرّم الله وجهه حينما قدم إليه شئ من الحلوى في يوم النيروز : نيرزونا أكل يوم،وفي المهرجان: مهرجونا كل يوم ، فهذا من المعرّب . وقالوا تحجّر الطين : صار حجرا ،ورآه ضرب رئته وعصاه ضربه بالعصا وسافه بالسيف وساطه بالسوط وأماه السكين سقاه الماء وجلس القوم يجلسون جلسا أتوا الجلس، والمنجد الذي أتى نجدا،قال مروان بن الحكم ونسب لغيره :

قل للفرزدق والسَّفاهةُ كاسْمُها

إن كُنتَ تاركَ ما أمرتُكَ فاجْلسِ

ورأيتهم يَعدُون جالسين أي منجدين ، وجلس السحاب أتى نجْدا . وقال ساعدة بن جؤية .

ثم انتهىَ بصرى وأصبح جالسا

منه لنجد طائفٌ متَغَرِّبُ

وفي الحديث أنه أقطع بلال بن الحارث معادن القبليا غوريّها وجليسيّها [2]. قال ابن الأثير : وفي كتاب الأمكنة : معادن القلبة . وهكذا ذكر ابن درستويه الاشتقاق من الأب والأم والأخ ... وكل ماسبق كان سببا في الاشتراك والترادف والأضداد وما إليها ، مما كان لابن درستويه به غاية .

تطور الدلالة :

إن دراسة التطور الدلالي بدأها حديثاً بريل أواخر القرن التاسع عشر ، واقتصر في هذه الدراسات على الجانب الذاتي للألفاظ وأغفلت العوامل الاجتماعية والخارجية ، وبدأ يدخل هذا الميدان متخصصون عديدون كعلماء النفس والطبيعة والمشتغلون بالصحافة [3]. وقدْ تناول شيئا من ذلك جورجي زيدان، فأرجع الشتاء في

(١) تاج العروس : السين .

(٢) المصدر السابق : نزر ، جلس .

(٣) دلالة الألفاظ ص ٣ - ٦ .

الأصل السامى فى الدلالة إلى « الشرب أو الريّ أو الصبّ » فهى كذلك فى العبرانية والسريانية إلى اليوم . وكتب فى أصل دلالته على الحفر فى الحجر أو الخشب ، والملح من «ملح أو ملأ» أى نبع الماء . ومرء أصل دلالتها فى اللغات السامية القوة ، ومنها إلى الرياسة ثم إلى الإنسان . ولا زالت فى السريانية تدل على الربّ فقط . والبعل بمعنى الزوج أصل دلالته السيد أو الرب وهكذا أرجع ألفاظ أخرى كالتاريخ وغيره . كما أرجع ألفاظ الترادف وألفاظ الأضداد والمشترك إلى تفرع ألفاظ اللغة ومعانيها بالنمو والتجدد وتكاثر الدخيل [1]. كما تناولها الدكتور على عبد الواحد وافى فذكر العوامل المؤثرة فى تطور الدلالة وأرجعها إلى مبلغ وضوح دلالة الكلمة فى الذهن ، أو أنها ترجع إلى عوامل تتعلق بأصوات الكلمة ، أو إلى عوامل تتعلق بالقواعد ، فقال إن تذكير كلمة « ولد » مثلا فى العربية بمعنى ولد صغير معناها يرتبط فى الذهن بالمذكر ، فأصبحت لا تطلق فى العامية إلا على الولد من الذكور [2]. وعرض لها المرحوم الدكتور أنيس بشكل أوسع ، فتحدث عن ظاهرة التطور وأنها شائعة فى كل اللغات ، ثم عن الحقيقة والمجاز ، ذاكرا من عوامل التطور : الاستعمال وسوء الفهم ، وبلى الألفاظ ، والحاجة ودوافعها ، ثم تحدث عن أعراض التطور الدلالى من تخصيص الدلالة أو تعميمها أو انحطاطها أو رقيها ، أو تغير مجال استعمالها لأسباب ذكرها [3] وحسبك أن تعرف أن أصل كلمة « المجد » هى فى الأصل علف الدابة ، فأنظر كيف صارت من المحسوس إلى المعنوى.

ولا شك فى قيمة هذين المرجعين « اللغة والمجتمع » و « دلالة الألفاظ » لأنهما بذلك فتحا فتحا جديدا فى الدراسات العربية ، إلا أن ذلك لا يمنع من إيراد بعض الملحوظات عليهما ، ذلك أن أغلب الاستشهاد فيهما من غير العربية الفصحى سواء كان ذلك عاميا أو أجنبيا ، وهذه الظاهرة أخف فى دلالة الألفاظ منها فى « اللغة والمجتمع » وبخاصة فى ناحية الصوتيات ، فإليها فى الغالب يرجعان التطور، ومن المعروف أن التطور فى العامية أسرع وأشمل وأظهر منه من الفصحى لأسباب معلومة .

---

(١) اللغة كائن حى ص ٤٩ وما بعدها ، ص ٦٠ .
(٢) اللغة والمجتمع ٨٨ - ٩٠ .
(٣) انظر دلالة الألفاظ للدكتور أنيس ١١٨ - ٦٠ .

وسأتناول في البحوث التالية هذا التطور بشيء من التفصيل داخل مجال اللغة الفصحى عند الكلام عن آراء ابن درستويه اللغوية .

ومن أبرز مظاهرها العموم والخصوص، فكثيرا ما انتقل اللفظ من الكل إلى الجزء وعكسه أو من الصفة إلى الموصوف ؛ فاللحم في العربية معناه في اللغات السامية : الطعام عامة ثم خصته العرب في دلالته على أهم أصناف الأطعمة عندهم وهو اللحم ، وصار يدل على الخبز في السريانية .

والأصل في طبخ الدلالة على الذبح ، واللفظان متشابهان فتحول معناها في العربية إلى معالجة اللحم للطعام ، واستعملوا للذبح كلمة تقرب منها . ووجدت أن « أحلبت » بالمهملة معناه أعانت ، قال المرزوقي : وأصله الإعانة في الحلب خاصة ، ثم استمر في الإعانات عامة ، قال : وقد يكون الشيء مختصا في الأصل ثم يصير في العرف عاما ، كما يكون عاما في الأصل ثم يصير مختصا [1] وكلمة الدابة في أصلها لكل ما يدب على الأرض قال تعالى « وما من دابّة إلاّ على الله رزقُها » الآية ، ثم خصها العرف بذوات الأربع وهكذا فخصّت بنوع مما لا يعقل ، وهكذا تبادل الخاص والعام التأثير بعضهما في بعض . ومن ثم درّسه الأصوليون .

٣ - تهذيب اللغة

كان هذا المدخل لازما لدراسة آراء ابن درستويه ومواقفه من خصائص العربية ، وما دامت اللغة متطورة خاضعة للمجتمع وما يجري فيه بحكم أنها ظاهرة من ظواهره ، فهي بحاجة إلى التهذيب والإصلاح ، واليونانيون تناولوا لغتهم بالإصلاح على يد «سقراط» حينما أفقدها السوفسطائيون معانيها بسفسطتهم . كما وضع للإنجليزية حديثا حدود وقواعد وأسس أساسية ، وأظهر من ذلك كله ما حدث في فرنسا في صدر القرن السابع عشر إذ عنوا بتوضيح معاني الكلمة وبتجديد مدلولاتها، وبتفريق ما اقترب معناه حتى كاد يغمّ عليهم أمره ، وبتخصيص الجمل بتعابير مستقلة بعد أن كاد بعضها يكون مشتركا ، تستعمل الجملة الواحدة في معان مختلفة من غير تفريق بينها ، وحصروا كثيرا من المترادفات في معان مختلفة ، بحيث أصبح لكل لفظ منها معنى خاص [2] ذلك ما

---

(١) شرح شواهد المغنى ٧٣

(٢) مجلة المجمع العلمى م ٨ ص ٦٠٢ من السنة الثامنة .

قالة «لانصون» مدير دار المعلمين العليا فى كتابه « تاريخ الأدب الفرنسى » الطبعة الثامنة عشرة .

هذا ما حدث فى اللغات الأخرى ، فماذا حدث فى اللغة العربية ؟ يسعفنا المرحوم أمين الخولى بالحديث عن التطور فيها وأنه الجذر العميق للمنهج العلمى اللغوى ، وأنه يقتضى عملا جادا، وعرض لقضايا تطورية وكان حديثه عاما أشبه بما يسمى اليوم بالتخطيط، ونفى أن تكون معاهدنا الجامعية منها وغير الجامعية قد اتجه إلى شىء من أمر هذا التطور اللغوى ، ورأى أن علم الوضع لاجدوى للاشتغال به اليوم . ونعى على الذين نقلوا من الغرب أن العربية مرت بأربع مراحل مما يسمى « تهذيب اللغة أو تنقيحها » هى : -

١ - ما عمله يعرب بن قحطان

٢ - ما عمله إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام لما أصهرا إلى جرهم .

٣ - ما عملته قريش بمكانها من الجزيرة فى الحرم وانتخابها الأمثل من لغات العرب التى تفد عليها،وبهذه اللغة المهذبة نزل القرآن .

٤ - ما عمله اللغويون فى جمع اللغة من تهذيب قصرها على ما أثر عمن أختاروا الجمع عنهم من خُلّص العرب ومن لا يجاورون الأمم الأعجمية [١] .

ولا أرى - بدورى - وجها لأنكاره ذلك إلا فى المرحلتين الأوليين ، أما الثالثة والرابعة فأقرّ ذلك لما سبق أن قلته من تضافر عوامل دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية على سيادة لهجة قريش التى نزل بها القرآن فى معظمه ، وقد سبق قول الفارابى فى أفصحية بعض القبائل ، وفى ارتفاع لغة قريش - عن اللغات المذمومة ، وفى تخيرها الأعذب والأسهل . بل أضيف إلى المرحلتين الأخيرتين مرحلة ثالثة هى ماسماها « يوهان » « مبدأ تنقية اللغة » ذلك المذهب الذى أسهم فيه ابن درستويه بنصيب الأسد حينما هاله أمر اللغة وما آلت إليه ، كما سبق أن أوضحت ، واستغلال الشعوبيين لذلك ، وكذلك الخلط فى ما سمى « خصائص العربية » وما دخلها حينئذ على يد الفرس وعوام الشعب ، فهب ينافح عنها آخذا بيدها ، مهذبا ، كما تشذب الشجرة لتورق وتثمر، فأزال عنها ما هو كالميت منها ، ورد كل شىء إلى أصله ، وأثبت تطورها ، ومحا عنها الوصمة التى رمتها بها الشعوبية،

(١) محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية لأمين الخولى طبعة ١٩٥٨ ص ٤١ ، ٤٢ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٩ .

فألف رسالته إلى نجيح الطولوني في تفضيل العربية ، وبكتابه كتاب الكتاب في الحفاظ على اللغة وصيانتها مما أسهم به في مجال نقد النثر . وصنف في إبطال الأضداد ، وإبطال الترادف في كتابه فعل وأفعل ، ليحدد بذلك المعاني وليرجع كل لفظ إلى لغة معينة أو إلى أصله ، وألف في إبطال الزيادة في الكلام وغير ذلك ، وإن فقدت هذه الكتب فقد جاء منها أمثلة في شرحه للفصيح ونقل فيه عنها لأنه كما يبدو كان آخر مؤلفاته ، ومن قبله فعَل ثعْلب فحدد ما تخطىء فيه العامة وما لا تخطىء فيه . مما صار مقياسا للصواب اللغوى في عصره وما بعد عصره إلى غير ذلك من كتبه .

فلابن درستويه فضل السبق في التهذيب اللغوى عامة ، فقد قام منذ عشرة قرون تقريبا بما طالعتنا به فرنسا إبراز لغتها في القرن السابع عشر الميلادي ، أى بعد عمل ابن درستويه بما يقرب من ثمانية قرون .

وهأنذا الآن أقوم بدراسة الخصائص اللغوية على ضوء آرائه فيها مبينا وجه الحسن والقبح فيما ترك لنا من مذاهب لغوية ونحوية فقد أعمل فكره ونظره حيث كان من النظارين كما وصف بذلك ، مع اعتبار ميزتين هامتين في آرائه هما :

١ - تهذيب اللغة الذى لحظه الأزهرى حينما سمىّ معجمه التهذيب .

٢ - تطورها واعتبارها كائنا حيا يعتريه ما يعترى الأحياء من ضعف وقوة وحياة وموت وفقر وغنى ، كما اعتبر فيشر في معجمه الكبير .

وإن امتد الأجل ذكرت آراءه النحوية الخاصة وما انفرد به دون النحاة ، وعرضت لجملة آرائه من خلال شرحه لفصيح ثعلب .

والله الموفق ..

(للبحث بقية)

محمد بدوى المختون